

العقل وقدراته

يمكن القول: إن هناك دائرتين للعلوم والمعارف، دائرة خاصة يصعب على العقل أن يستقل بإدراكها، ودائرة كبيرة جداً أحب أن أسميها (علوم الحياة) مثل الطب والزراعة والصناعة والفيزياء والكيمياء والجغرافيا والإدارة... وما شابهها، فهذه العلوم يمكن للإنسان أن يستقل بمعرفتها، فإن أصاب فذاك وإن أخطأ فلا تثریب عليه.

أما الدائرة الأولى فتتعلق بمعرفة الله تعالى وصفاته، واليوم الآخر وما يحصل فيه والعبادات وما يقبل منها وما يرفض، والعقائد، وما يحبه الله تعالى وما يكرهه، هذه الساحة لدينا فيها نصوص صحيحة، فهل من العقل أن نهجر هذه النصوص لنبحث بعقلنا المجرد عن الله تعالى وصفاته والعبادات وما يقبل... إلخ؟

البعض يريد أن ينصب العقل (صنماً) ويعبده، بالأمس كان حجراً واليوم يكون (عقلاً)، وقد يكون بقرة أو صنماً من تمر أو من شكولاته، فإذا جاع أكله، وشرب علبه بيبسي ليهضمه..

لقد ترك للعقل مساحة كبيرة، لكن عليه أن يعرف حدوده، فهو لوزن الأحجار الصغيرة، فعليه أن يلتزم حده، ولدى العالم ملايين المشكلات علينا أن نحلها، ولا نخترع مشكلات نتطاحن عليها ونتصارع.

عشق العقل والعقلانية

د. طه عبدالرحمن - الأستاذ بجامعة محمد الخامس بالمغرب والمفكر المعروف - يسجل (تحفظاً) حول مصطلح (العقلانية)، فهو غير محدد مما يسبب نوعاً من التشويش، وذلك بتوارد ضروب من الشُّبه، كما تطرق إليه صنوف من (الخلل والفساد)، وهو يتخير (طريقاً سليماً) يكون موافقاً للممارسة الدينية الإسلامية.

نتطلق - في هذا العرض - التقويمي من واقع الاشتغال به، فمن يتأمل هذا الواقع يتبين فيه الحقائق الآتية^(١):

١- الدعوة إلى التزام (العقلانية) فكل من تولى النظر في وسائل النهوض بواقع العالم العربي والإسلامي لم يتردد أن ينصب (العقلانية) مثلاً لوسائل النهضة، وإماماً للناس يهتدى به...
٢- تعارض المبادئ العقديّة للداعين للعقلانية، يتساوى فيه الإسلامي وغيره، وما بينهما، منتقياً بعض المبادئ من الإسلام أو من مذاهب غير إسلامية، أو غير دينية، بحجة مساندة التطور.

٣- امتداد الدعوة إلى العقلانية حيث تزايدت الألسنة في الشدة والانتشار، على مدى مدة استغرقت (قرناً ونصف

(١) مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٣) لعام ١٤٢١هـ ص (١٠٩).

قرن) حيث امتدت من منتصف القرن (١٩) حتى نهاية القرن العشرين. هذه العناصر من شأنها أن تستوقف المفكر المسلم، وتحمله على تمحيص هذا المصطلح في مبادئه ومناهجه وقيمه، كي نتبين مدى وفائه بالأهداف الإصلاحية والتغييرية، التي علقت واستعملت لأجلها، وحدود هذا الوفاء... ا.هـ.

هذا كان أشبه بمقدمة للبحث، وبعد ذلك يحاول تحديد المصطلح، ووضع (معايير) لذلك.

معايير تحديد العقلانية

حصر المعايير بثلاثة فقط هي^(١):

١- معيار الفاعلية: ومقتضاه أن الإنسان يتحقق بواسطة أفعاله، ويظهر ذلك فيما يتطلبه ويتخذه من المواقف التي تتحدد بمجموعها طبيعة سلوكه.

٢- معيار القيمة: ومقتضاه أن الإنسان لا يركن إلى ما هو كائن وما هو واقع، بل يسعى دومًا أن يكون (موجهًا بقيم معينة) تملي عليه ما يجب أن يكون مشدودًا لمفاهيم تغلو بهمته إلى الخروج عن حالة الحاضر، ابتغاء أحوال أفضل، ويدله على ذلك أنه ما أن يصل إلى مرتبة، حتى يطلب مرتبة فوقها.

(١) مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٣) لعام ١٤٢١هـ ص (١٠٩).

٢- معيار التكاملية: ومقتضاه أن الإنسان ليس مجموعة من أجزاء تقبل الانفصال بينها، وإيقاف التأثير لبعضها في بعض. إنما الإنسان ذات واحدة، تجتمع فيها مظاهر القوة مع مظاهر الضعف، والعرفان مع الوجدان، وقيم الجسم مع قيم الروح... أ.هـ.

ومعلوم أن الفاعلية تتعلق بالوسائل، وأما القيمة فتتعلق بالمقاصد، وأما التكاملية فتتعلق بالنفع في المقاصد مع النجاعة في الوسائل.

بعد هذا يطرح د. طه تساؤلاً: هل يوجد منهج علمي عقلي واحد يتفق عليه أهل العلوم كافة؟

المنهج العلمي العقلي والمقاصد

يجيب د. طه عن التساؤل السابق^(١): بأن الذي يظهر هو وجود أكثر من منهج، سواء في ذلك القواعد والمسلّمات أو الأنساق التي يبني عليها، فهناك - مثلاً - الهندسة الإقليدية واللاإقليدية، وفي الفيزياء هناك نظرية (المكان المطلق ونظرية النسبية).

وبالنظر لكثرة الاختلاف فتصور وجود (خطاب علمي واحد) صادر عن العقل الإنساني - بوصفه حقيقة واحدة

(١) مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٣) لعام ١٤٢١هـ ص (١٠٩).

مشتركة - هذا التصور لا يمكن وصفه (مقصداً) يتوخاه (المنهج العقلي العلمي).. يضاف لذلك أن (مقاصد العلوم) إذا أتت تهدف لتحرير الإنسان وتوسيع إمكانياته وتيسير أموره وإسعاده، فإن (التقنية) ومناهجها بعيدة كل البعد عن ذلك، فلقد تكاثرت التقنيات، حتى صارت مشكلة من مشكلات العالم.. فالتقنية اليوم تستحوذ على الإنسان، بل تفقده إرادته، وقد تغير عقله... الإنسان (خادم لا مخدوم)، وصارت الآلة مستقلة بنفسها، وتسير وفق منطقتها، والحاسب الآلي أفضل دليل... إن التقنية اليوم تقوم على مبدئين:

أ - مبدأ لا عقلي، ومقتضاه: كل شيء (ممكناً) حتى استنساخ البشر والحيوان، وإجراء كافة التجارب النافعة والضارة، على الإنسان والحيوان والنبات، بل كافة الأحياء..
 ب- مبدأ غير أخلاقي، خلاصته: كل شيء ممكن يجب صنعه، وهكذا تتساقط كافة (الموانع الأخلاقية)، وعندها يسقط الإنسان في الظلمات، وهذا عكس مطلب تحرير أو تحرر الإنسان وإسعاده.

وأخيراً.. فالمتابع (للمنهج العلمي) والنظريات لا يجدها تتكامل، بل تتقاطع، وقد تهدم واحدة ما تبنيه الأخرى، والمثل (صناعة الأسلحة) وأسلحة الدمار الشامل، وبعدها يجري البحث لإيجاد وسائل واقية..

ولعل الأغرّب: أننا ما أن نجد جواباً لسؤال، حتى نقع في جملة أسئلة لا نجد لها جواباً، الأسئلة تتكاثر يومياً، والمنهج العلمي يعجز عن الإجابة.. والخلاصة: إن المنهج العلمي يطلب (النسبية والتفاضل) وليس الوحدة والتكامل، والنتيجة (استرقاق الإنسان أو تهميّشه) بدلاً من تحريره.. والأدهى أنه ينشر (الفوضى) في العالم بدل النظام، العالم يتطلع نحو الاستقرار وقلة الحروب، لكن القرن العشرين صار الأكثر دموية مما سبقه من القرون... أ.هـ.

المطلوب الأول من التحضر والعلم والتقنية والعقلانية خدمة الإنسان وتسهيل أمور معاشه، وتسخير كل ما في الكون لخدمته، ولكن الذي حصل أن تحولت الأهداف فصار الإنسان هو (الخادم) وغيره هو المخدم؛ لذا تعاضمت متاعب الإنسان وكثرت أمراضه (البدنية والنفسية) حتى صار الأغنياء هم الأكثر متاعب، وربما حصل هذا لأول مرة في تاريخ البشرية..

لذا راح د. طه يبحث في المنهج العقلي العلمي والوسائل، فحدد أربع صفات هي^(١):

١- ادعاء الموضوعية بالادعاء في (تطهير) الوسائل من كل أثر للمعاني والقيم الموجهة للحياة الإنسانية، كل ذلك

(١) مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٢) لعام ١٤٢١هـ ص (١١٦)..

باسم الموضوعية بالاحتكام للملاحظة والتجربة الحسية،
فاستبعدت المعاني الدينية والقيم الأخلاقية بوصفها
(مثبطة للعمل العلمي).

٢- الجمود على الظاهر: فالمنهج العلمي يحصر موضوعاته
(بالظاهر) التي تقبل التجريب والتحليل فقط، دون طلب
الحقائق. علماً بأن المطلوب الجمع بين (ظواهر الأشياء
وبواطنها).

٢- الجمود على المكان والزمان: وهذا (التحيز) يجعل من شيء
غير ممتد تجعله يمتد، ومن شيء غير قابل للمقدار، تجعله
قابلاً له.

إن المنهج العقلي قد يعتمد إلى (أمر خاص) فيعممه،
وهكذا حرماناً من أصول النجاعة المشروطة في العقلانية
السليمة.

٤- اصطناع الوسائط المادية: العلم مستفاد بصورة مباشرة
من اصطناع كثير من الوسائط، وهناك مبدأ: كلما يكون
الشيء لطيفاً دقيقاً - في ظهوره - تتعدد وتتعدّد (الوسائط
إليه) وبالعكس، فكلما كانت الأشياء (كثيفة ومجسمة)
قلت الوسائط... والنتيجة: إن إدراك الحقائق الروحية -
غير المتناهية في الدقة واللطافة - يستلزم من الوسائط
ما لا حصر له.. والمنهج العلمي حصر نفسه ب (الوسائط

المادية)؛ لذا امتنع عليه إدراك ما يتأتى بوسائل أخرى، مثل المعاني الروحية، فضاعت النجاعة المطلوبة.

إن المتابع لوسائل المنهج العلمي العقلي يجد (وسائله) غير ناجعة؛ لأن (موضوعيته) تقف عند (الظواهر)، وتجمد على الزمان والمكان، ولا تقبل من الأسباب سوى المادي منها، وهذه خسارة قد عادت على الإنسان وحضارته بقسط كبير جداً... اهـ

خلاصة جيدة

د. طه يكتب خلاصة لبحثه الطويل القيم، فيقول^(١):
العقلانية بوجه عام عبارة عن (ماهية الفعل) الذي يطلب صاحبه تحصيل (مقاصد معينة بوسائل معينة)، والعقلانية (المجردة) بوجه خاص هي الفعل الذي يريد صاحبه تحصيل مقاصد (لا يتيقن) نفعها، ووفق طرق ووسائل لا يقين في نجاعتها، وهي (تُخل بالنفع في المقاصد)؛ لوقوعها في دائرة (النسبية والفوضى والاسترقاق) - كما تقدم - وهي تُخل بالنجاعة في الوسائل بسبب استبعادها (للمعاني الروحية) ووقوفها عند حدود الظاهر - لا تتعداه - مع الجمود زمانياً ومكانياً، والأخذ بالوسائل والوسائط المادية لا غير.

(١) مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٢) لعام ١٤٢١هـ ص (١٢٢).

أما العقلانية (المسددة) فهي صفة للعقل الذي يطلب صاحبه تحصيل (مقاصد نافعة) لكن بوسائل لا يقين في نجاعتها، وهي تقع بين أفقين (التظاهر والتقليد).

أما العقلانية (المؤيدة) فهي صفة للعقل الذي يطلب صاحبه تحصيل (مقاصد نافعة) عن طريق وسائل (ناجعة)، ولن يتم هذا الجمع بين نفع المقاصد - في ثباتها وشمولها - وبين نجاعة الوسائل في تبدلها وتغيرها وخصوصيتها، إلا بدوام (الارتباط بالله) والاجتهاد في بلوغ الغاية في ذلك، وحتى يستقيم لنا بناء (علم نظري أو طبيعي إسلامي أو تشييد فكر إسلامي) ما لم ننشء (منهجية عقلانية) تتصف بأوصاف تحقق لنا الجمع بين سائر العقليات - كما تقدم -.

والمطلوب أن نهض بذلك (نحن) ولا نأمل أن يفعله غيرنا، كما لا نرجو أن نقله عن سوانا، وبالله التوفيق^(١) ... ا.هـ.

عقل عربي إسلامي واحد أم عقليات؟

تبنى د. محمد الجابري في كتابه (نقد العقل العربي) أنه ليس هناك (عقل عربي واحد) بل عقول متضاربة متضادة، الواحد منها يعمل ضد الآخر... هذا الطرح تناوله (جورج

(١) البحث طويل وقد جاوز (١٥٠) صفحة، وأقترح دراسته بعناية، فهو مشروع لعقلانية جديدة مادية وغير مادية.

طرايبشي) بالرفض التام والقول بوجود (عقل واحد) له (مرجعية واحدة)، ويقول: إن دوائر العقل العربي (متحدة المركز) سواء أكانت بيانية أم برهانية أم عرفانية، فهذا معناه أن النظام (الأبستمي) - العلمي - لهذا العقل واحد، من ثم ما كان لهذا العقل أن يشهد أي قطيعة (ابستمولوجية) مهما تمايزت العبقريات والأماكن، فإذا أخذنا بصورة سمعية بدلاً من الصورة البصرية، فلنقل إن ثمة (سنفونية العقل العربي الإسلامي واحدة)، مهما تنوعت الآلات، وتضمن العازفون، وتمايز الأداء، إن القانون المعرفي الذي حكم (المسيرة التاريخية) لهذا العقل، هو قانون (التراكم الكمي)، الذي ما كان له قط أن يتأدى إلى (قول كيفي) أي إلى قطيعة (ابستمولوجية) - كما بتنا نقول - فدائرة (العقل العربي المسلم) مهما اتسعت ما كان لها أن تستقل عن نقطة (مركزها)، والارتباط ليس فك الارتباط هو (المبدأ الناظم لكل إحداثيات العقل العربي الإسلامي)، تلك القابلة للارتسام بدءاً من نقطة (مركزه) وبحكم هذه (المركزية)، فإن العقل العربي المسلم ما كان له أن يقطع مع نفسه، ففي حالته لا يمكن (للقطيعة) الابستمولوجية أن تعني شيئاً آخر سوى (الخروج عن مركزيته)، إما بإبدال (نقطة المركز نفسها) وإما بالاستغناء عن كل (نقطة مركز) والتحول من منطلق (الدائرة) إلى (منطق السهم) على غرار ما

حدث للعقل (الغربي الحديث) بدءاً من قطيعة عصر النهضة الأوروبي^(١)...اهـ.

أعتقد أن العقل - منشئ الثقافة - يتوحد إذا اتحدت (المرجعية) فإن تعددت المرجعية اختلف العقل، ولعل المثل القريب العقل الغربي فهو له مرجعيتان الأولى وثنية يونانية رومانية، والمرجعية المسيحية التي تلت المرجعية الأولى، وبسبب ذلك يكون الاختلاف، العقل العربي مرجعيته إسلامية ولو لم يكن صاحبه (مسلمًا).

الدين والدولة في المسيحية والإسلام

من المعروف أن الدولة البيزنطية سابقة في وجودها للمسيحية، بل مضت قرون والدولة تمنع المسيحية من الانتشار، حتى اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية متأثرًا بوالدته، وقد كان للدولة تشريعاتها ونظمها، وقد (طلبت) بالمسيحية، وظلت الثقافة الإغريقية حية وإلى جانبها الثقافة المسيحية المخالفة لها؛ لذا سرعان ما نشب صراع حاد بين رجال العلم والكنيسة، فأقيمت (محاكم التفتيش)، حيث عرض عليها (٣٥٠) ألف إنسان للامتحان والتعذيب، وقتل منهم أكثر من (١٥٠) ألف حتى شاع: العالم لا يكون متدينًا، والمتدين لا يكون عالمًا.

(١) نقد العقل العربي) ص (٤٠٥) الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

وطرح حلٍّ بموجبه تم تقاسم (الوظائف)، فللكنييسة العبادة والندور، وللدولة السياسة والاقتصاد والتعليم. وقد أطلق على هذا الحل (العلمانية)، وليس له أي علاقة بالعلم من قريب أو بعيد..

في الإسلام كان الدين سابقاً على الدولة، ولما قامت الدولة الإسلامية الأولى في المدينة كانت وفق مبادئ الإسلام، فحددت شروط الحاكم وواجباته بوضوح، كي لا يستحدث حقوقاً جديدة.

يلاحظ أن الثورات لم تكن - عندنا - ضد الدين، ولكن ضد من يخرج عليه أو يتجاهله، والعلمانية لم نعرفها ولم نحتاج إليها، ولكن الغرب يريد فرضها علينا وفق طريقة: تريد أرنباً خذ أرنباً، تريد غزلاً خذ أرنباً..

والذين (يتغزلون) بالعلمانية لا يفرقون بين مجتمعاتنا والغرب، وفقاً للقضية المنطقية المعروفة: الإنسان يتنافس والبقرة تتنافس، وبهدف المشترك تكون النتيجة (عظيمة جداً) الإنسان بقرة أو البقرة إنسان.. أخيراً وحدة المرجع (توحد) وتعدد المراجع يفرق، هل من يجادل؟

من عجائب الحضارة

الدول الصناعية تصنع بضائع لا تحتاجها ولا تستعملها، والهدف التصدير وجني الأرباح، وليكن بعد ذلك ما يكون، فكل الذي فوق التراب تراب..

د. نعوم تشومسكي - الذي يوصف بكونه معارضًا
مشاكسًا - يسلط الضوء على بعض صادرات الغرب مثل:
المخدرات والسجائر والأفيون، والتسييح بفضائل التجارة
الحرّة، والحديث اليومي عن قوانين السوق.

يذكر د. نعوم^(١): أن حرب (المخدرات) صاحبها الكثير من
الصراخ والضجيج، وذلك عام ١٩٨٩م، وقد عقدت لجنة (ممثلي
التجارة الأمريكية) اجتماعًا في واشنطن، من أجل اعتماد طلب
من صانعي التبغ - السجائر - بأن تفرض أمريكا عقوبات على
(تايلند) انتقامًا من جهود الأخيرة لحظرها استيراد (التبغ
الأمريكي) والإعلان عنه، وقد (دكت) هذه الأفعال التي تقوم
بها أمريكا (حناجر) مستهلكي التبغ والمدخنين في اليابان
كذلك وكوريا الجنوبية وتايوان، إذ كلفت أرواح إنسانية كثيرة.

وقد أدلى (ايفيريت كوب) المدعي العام الأمريكي بشهادة
أمام لجنة (ممثلي التجارة الأمريكية) فقال: حين نتوسل إلى
الحكومات الأجنبية أن توقف تدفق (الكوكايين) فإنه من أكبر
الرياء أن تصدر أمريكا (التبغ) وبعد سنوات سننظر إلى الوراء
على تطبيق (سياسة التجارة الحرّة) لنجدها فاضحة... ا.هـ.

(١) ما الذي يريده العم سام حقًا، ترجمة د. موسى برهوم، طبعة ١٩٩٣
ص(١٠٠).

د. نعوم يستذكر ويذكر العالم بأمر أعجب من الاحتجاج على تايلند، وكل من يحارب التدخين، إنه يذكر أنه قبل أقل من قرنين أجبرت الحكومة البريطانية الصين على فتح حدودها لنوع من المخدرات النباتية (الأفيون) الذي يزرع ويصنع في (الهند البريطانية)، وتزامن ذلك مع رفع بريطانيا شعار (فضائل التجارة الحرة) على حين تقرض بالقوة تعاطي المخدرات على الصين، وبشكل واسع الانتشار... ا.هـ.

ولو كانت بريطانيا أو أمريكا دولاً فقيرة متخلفة مثل أفغانستان لهان الأمر، بل هناك معلومات تشير إلى أن المخابرات الأمريكية تتاجر بالمخدرات لتستعمل العائد في تمويل انقلابات عسكرية هنا أو هناك، ومع ذلك وفوق ذلك يتساءل أكثر من رئيس أمريكي: لماذا يكرهنا العالم ونحن طيبون؟

نعم أنتم طيبون ولكن.....

من الإنجازات الحضارية

ما زلت مع د. نعوم الذي لا يهاب ولا يخاف ولا يجامل، فهو يتحدث أن بلاده قامت بإبادات جماعية - وأزيد: وما زالت مفرمة بهذه اللعبة الحضارية -.

يقول د. نعوم^(١): إن أول وزير دفاع لبلاده (الجنرال هنري نوكس) كان مسؤولاً عن (تهجير الهنود الحمر) ابتداءً من عام ١٧٨٤م نقل عنه قوله: إن ما فعله بالسكان الأصليين، أسوأ مما فعله الفاتحون في بيرو المكسيك، وأن مؤرخي المستقبل سينظرون لأفعالنا هذه على أنها مما يمكن تسميتها بـ(الإبادة الجماعية).
أما جون كونيس أدافز فقد شعر أن الرب سيعاقب البلاد على إبادة وطرد السكان الأصليين... أ.هـ.

د. نعوم يذكر: أن الاستعمار البريطاني للهند جابه في البنغال مجاعة كبيرة، فكيف تصرف بريطانيا العظمى؟ مشرفون بريطانيون أخذوا أراضي زراعية، ليحولوها لزراعة (الخشخاش) لصالح تجارة الأفيون، التي فرضوها على الصين بالقوة، والعهد على د. نعوم، أهؤلاء هم قادة العالم للسلام؟

بين الاعتدال والابتدال

يشهد العالم (صراعات) تتغير يوماً بعد يوم، في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين كان الحديث عن التقدمية والتقدميين، وسب الرجعية أو (الركعية) صباح مساء، التسييح بحمد الاشتراكية، حتى الكلاب صارت تنبح وتلهج

(١) ما الذي يريده العم سام حقاً، ترجمة د. موسى برهوم، طبعة ١٩٩٣ ص(١٠٠).

بذكر الاشتراكية الرشيّدة وغير الرشيّدة، بعدها الديمقراطية والتغني بذكرها العطر، وهذه الأيام الغزل كله في الاعتدال والتطرف، الحمائم والصقور، العولمة ومتطلباتها..

صالح بشير - تونسي يقيم في إيطاليا - يكتب عن (التطرف والاعتدال) والسلم والحرب، ويسجل: أن إسرائيل استطاعت أن تسقط خيار السلم والحرب معاً، وهي تجد دعماً كبيراً لمشاريعها، ومما سجله^(١):

١- كلنا في الهوى سوا، ليس من حق أحد أن يزايد على أحد، لا دعاة النضال والجهاد، ولا من يروج للاعتدال والذين يلقون الدروس (الحدائثية والعقلانية) ..

٢- إسرائيل استطاعت من (تبيّس العرب) من سلوك طريق المسالمة، كما يأستهم من توخي (سبل الحرب)، حتى أحالت جيوشهم على التقاعد، والشكوى لله وحده.

٣- لقد بينت إسرائيل للعرب بأنه لا جدوى من الحرب؛ نظراً لتفوقها المضمون عالمياً، ولا السلم والتفاوض؛ لأنها لا تريد حلاً عادلاً.

٤- إسرائيل حصنت نفسها بامتلاكها الوسائل ضد السلم والحرب معاً.

(١) صحيفة الحياة في ١٠/٨/٢٠٠٢م - ١/٦/١٤٢٣هـ.

- ٥- الحال عندنا ليس وجود أيديولوجيات مختلفة، بل خلاف بين يائسين من الحرب توجهوا للسلم هرباً، وبين يائسين من التسوية يهربون إلى الأمام..
- ٦- إن النضالية والجهاد صارت الأشبه (بنحر الذات) على أمل الخلاص من الاحتلال وتبعاته، وفشل المفاوضات المرثوية..
- ٧- ليس ثمة أيديولوجيات متعددة، بل انسدادات متعمدة، وأبواب مغلقة موصدة.
- ٨- لا الحروب جاءت بالحل، ولا المفاوضات والتنازلات جاءت بشيء.
- ٩- إلى هنا صار (الاعتدال) أيديولوجية ومعيّاراً للفصل في أمورنا كلها، وبمفعول رجعي، يدعوننا - دون ملل - للانعتاق.
- ١٠- أهل الاعتدال يلومون (رفض التقسيم) مع علمهم بأنه لا مبرر لقرار قبول التقسيم.
- ١١- العيب ليس في التقسيم، بل في الفشل في تفعيل الرفض.
- ١٢- صارت الواقعية تعني الإذعان للأمر الواقع وأيديولوجية في غاية (الرتاثة).
- ١٣- الواقعية مطلوبة من الفلسطينيين وحدهم دون غيرهم.
- ١٤- لقد مارس الفلسطينيون الاعتدال - وكانت أوسلو أكثر من اعتدال، فماذا قبضوا سوى السراب؟

- ١٥- لقد أفضل التعنت الإسرائيلي والإسناد الغربي الاعتدال، وسيقضي عليه كلياً..
- ١٦- تملك إسرائيل أساطير خرافية توراتية وأحلاماً تلمدية، ونجد الغرب يتقبلها بشكل عام والرأي العام الأمريكي بشكل خاص، فأين صارت العلمانية والعقلانية؟
- ١٧- إسرائيل تتصدق على الفلسطينيين ببعض حقوقهم، فيصفق الغرب للكرم الحاتمي.
- ١٨- كل دولة في العالم مسؤولة عن أمنها، لكن إسرائيل وحدها تحمل جيرانها المسؤولية عن أمنها، فعليهم حماية إسرائيل والغرب يؤيدها في ذلك.
- ١٩- النزاعات بين الشعوب والدول يمارس فيها العنف، ويعد عادة مشروعاً أو من باب (شر لا بد منه)، إلا إذا كان ضد إسرائيل، فهو عدوان مرفوض.
- ٢٠- الواقعية لا إشكال فيها، ولكن أن تتحول إلى (ميوعة وتخاذل) فهذا هو المرفوض والممجوح. كذلك فإن العنف الأعمى مرفوض، ولكن عنف إسرائيل هو الأنكى والأشد.
- ٢١- أي جهة وطنية يمكن أن تكون (متطرفة في أهدافها) ولكنها معتدلة في وسائلها، هذه لا تثير العالم ضدها، إلا ما يحدث لإسرائيل، حتى رمي الحجر فإنه يقابل بالقتل.

٢٢- من يؤمن بالجهاد والنضال عليه أن يفهم ما يريده العالم، ولكن دون انغلاق ولا استسلام.

٢٢- ما زال الحق الفلسطيني غريباً في العالم، وهو في أيدي أفضل محام يدافع عنه.

٢٤- تعاني القضية الفلسطينية من تدخلات كثيرة مختلفة، هذا من أجل أن يربح، وذلك يريد أن يحسن صورته، وثالث يزايد على أخيه، ورابع تحول للعدو أو لحليفه، خوفاً على مركزه أو منافعه، البعض مستعد للقتال حتى آخر فلسطيني.

٢٥- في الجانب الفلسطيني ناس كبروا وتعبوا، فتحولوا من جهاد الخنادق إلى جهاد الفنادق، ومن مجاهدين إلى فلاسفة ومنظرين، ونصيحة مخصصة للكل: لا تحولوا الاعتدال إلى ابتذال ولا الواقعية إلى استسلام، ولا الجهاد إلى خطب بلاغية...، إن الثرثرة لا تطعم جائعاً، فكيف تحرر وطناً محتلاً؟ هل من مجيب؟

أزمة الإنسان والحضارة

الإنسان بوصفه كائنًا حيًا يتعرض لأزمات صحية واقتصادية واجتماعية ونفسية، قد يفلح في تجاوزها، وقد يفشل فتزمن، لتقرض أمراضاً وأزمات أخرى..

والحضارة بوصفها من منتوجات الإنسان، فهي مثله
تتعرض لأزمات، قد تكون ضعيفة، وقد تكون قوية قاتلة، في
البداية تفلح في التجاوز، لكنها عندما تشيخ وتصاب بتصلب
الشرايين، فإن أصابتها أزمة قوية وفشلت في العلاج فقد تسقط
وتذهب، ليحل مكانها حضارة (فتية) ... البعض يتهرب من هذه
النتيجة، ومن هؤلاء المؤرخ البريطاني (توينبي)، فهو لا يريد
أن يسلم بأن حضارة اليوم تعاني أزمة، وأن مستقبلها (رهن)
بتجاوزها..

أدغار موران المولود (١٩٢٠م) يعد ألمع فيلسوف فرنسي
للحضارة الحديثة، له كتاب جيد عنوانه: (نحو سياسة
حضارية)، قام المفكر (جورج طراييشي) باستعراض محتويات
الكتاب، وأنقله ملخصًا:

أدغار يطرح تساؤلًا: متى تدخل حضارة في طور (الأزمة)؟

ويرد قائلًا: عندما تتحول الحلول المقترحة للمشكلات إلى
(مشكلات)، والرجل يعتقد بما يلي^(١):

١- إن الحضارة الغربية قد دخلت في طور (الأزمة)، بحيث
صارت إنجازاتها مجرد (أعراض لأمراضها).

٢- حضارة اليوم قامت على (عقيدة إيمانية) تعتمد على

(١) صحيفة الحياة في ١/٩/٢٠٠٢م - ٢٦/٦/١٤٢٣هـ.

(حتمية التقدم) ^(١) في التاريخ مع الثقة بأن الغد سيكون أفضل من اليوم والأمس معاً.

٢- لقد اعتمدت الحضارة (آليات) لتأمين (التقدم الدائم)، وهي تصميم التقنية والتصنيع والاقتصاد النقدي والمذهب الفردي.

٤- هذه الآليات نفسها هي التي تهدد (بتآكل الحضارة) من داخلها، إذا ما ظلت (منفلتة من عقالها) بإيقاعها المتسارع الراهن، دونما ضابط (حضاري يضبطها).

٥- إذا كانت (التقنية) هي التي أتاحت للبشر (استرقاق الطاقات الطبيعية) والسيطرة عليها، فإن نفس التقنية اليوم (تتيح استرقاق البشر) أنفسهم، وفقاً (للمنطق الحتمي) الميكانيكي المسبق البرمجة للآلة الصناعية - وكل شيء له ثمن -!

٦- مما لا شك فيه: أن (التطور الصناعي) قد أمد البشر بمستويات حياة مرتفعة - خصوصاً - في الغرب، حيث وفر منتجات استهلاكية جماهيرية وفيرة ومنخفضة السعر، وبشكل مستمر.

٧- هذا الإنجاز - الذي أخذ شكل معجزة بالأمس - هو نفسه راح يهدد اليوم بالتقهقر في مجالين.

(١) هذه الحتمية طرحها هيغل في الديالكتيك، وعنه أخذتها الماركسية.

أ- خارجي على مستوى البيئة الكونية (بالتلوث والأمطار الحمضية، وارتفاع الحرارة، وثقب الأوزون، وانتشار الأمراض السرطانية).

ب- داخلي على مستوى (نوعية الحياة) اليومية للمجتمعات الغربية.

٨- على المستوى (الكوني) تبدو الأرض كأنها أدركت (منتهى حدودها)، فغاباتها تقطع وتستأصل، بحارها تلوث، طاقاتها الباطنية تستنزف، أما طبقة الأوزون فتترقق وتثقب، حرارة الأرض ترتفع وجليدها يذوب، أما مياهها الجوفية ففي تناقص.

أما على مستوى نوعية الحياة - في الغرب - فالمفارقة تظهر في أن (رغد العيش) صار يولد الكدر ونكد العيش.

٩- إن القدرة الشرائية للغرب قد تضاعفت (ثلاث) مرات خلال (٣٠-٤٠) سنة الأخيرة، لكن تضاعف بالمثل عدد (المتحررين)، كما تضاعف نزلاء المصحات النفسية.

بالمثل تضاعف استعمال المسكنات، والمهدئة للأعصاب (٦) مرات، وتضاعفت النفقات الصحية ما بين (٥-١٠) مرات.

١٠- صارت حضارتنا مولدة للأمراض - وقد كانت أمراضنا (بدنية ونفسية)، فزادتها الحضارة كمًا ونوعًا: السرطانية تكثر باطراد، مع كل تطور صناعي، وانتشرت أمراض

مزمنة)، مثل السكر والربو وارتفاع ضغط الدم، وأوجاع العمود الفقري، وتصلب الشرايين، كل هذا فضلاً عن التوترات النفسية والاكتئاب والأرق، والقادم أكبر وأعظم.

١١- أما مرض الحضارة بامتياز فهو (السمنة)، وليس صدفة أن يعاني الأمريكيون من فرط (السمنة)، وأن يعاني نصفهم من زيادة الوزن، فالحضارة الأمريكية هي الشكل الأكثر تطرفاً للحضارة الحديثة^(١).

١٢- عندما يحصل أن تتسع (أزمة الحضارة) خصوصاً في دوائر (العقائد والمعرفة) هنا يحصل تقدم مذهل (للمعارف)، ولكن على حساب (نكوص) فيها، جراء غلبة (الفكر التجزيئي) وانتشار التخصص الدقيق، وهذا على حساب الفكر والرؤية (الكليين)، ويتزامن هذا (النكوص المعرفي) مع نكوص (عقائدي) ..

١٣- في الوقت الذي تنتصر الديمقراطية انطلاقاً من قاعدتها (الغربية)، فإن الكثير من القيم (الديمقراطية) (تذبل)

(١) جاء في السنة .. خمس خصال أعود بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولا نقضوا العهد إلا سلب الله عليه عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، ولا منعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر، وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل بأسهم بينهم ... أ.هـ. أخرجه ابن ماجة في سننه: كتاب الفتن، باب العقوبات ١٣٢/٢).

داخل المجتمعات الغربية نفسها، وفي أمريكا أولاً، قبل غيرها... مفارقة غريبة حقاً!.

١٤- يلاحظ أن المواطن (العادي) يخلي مكانه (للخبير والتقني) أما الإقبال على المشاركة في الانتخابات فضي تناقص، والحس المدني يتراجع، وتضعف (قيم التضامن) كثيراً، ومثلها (المسؤولية المشتركة) ..

من جهة أخرى تصعد (قيم القبيلة الجديدة والطائفية)، وتشكل عصابات من الشباب الجانح أو مافيات في وسط (الجريمة المنظمة)، أو تقوم أصوليات أو هويات منغلقة في أوساط دينية وقومية متطرفة..

كما يحصل هروب من الحضارة للريف أو إلى المنتجعات السياحية، وانتشار أندية (العراة)، وانتشار المخدرات، وحتى (عبادة الشيطان).

١٥- المطلوب اليوم (سياسة حضارية) وليس أن ندير ظهرنا لإنجازات الحضارة كلها، لكن لا نتعاضد عن أمراض الحضارة، المطلوب نقلة نوعية من الكم إلى نوعية الحياة... سياسة متعددة الأبعاد: اجتماعية واقتصادية وقومية، أوروبياً وعالمياً.

١٦- على الصعيد الاقتصادي ينبغي أن يحل منطق (المدى البعيد) محل المنطق (قصير المدى) - الذي يعرف باقتصاد السوق.

- ١٧- يلاحظ أن الأرض - على المدى البعيد - مهددة بالاختناق الفيزيائي، الواقع تحت وطأة النمو الصناعي التقني (المنفلت من عقاله) .. وكل (نمو) لا يضمن مستقبله، يصير نوعاً من (الانتحار)، كما يمكن أن يصير (حكماً بالإعدام) على فرص مواصلة النمو بالنسبة للأجيال القادمة ..
- ١٨- على المستوى الاجتماعي فإن (المذهب الفردي) يهدد البشرية كلها (بالاختناق النفسي)، ومن دون أن تدير (السياسة الحضارية) ظهرها لمكتسبات (هذا المذهب)، لا سيما ما كان منها على صعيد (حقوق الإنسان)، فالمطلوب إحياء روح التضامن والمسؤولية، والحس المدني والأخلاقي معاً.
- ١٩- على المستوى القومي - وبالنسبة لفرنسا ومن يشابهها من دول - فالمطلوب مواجهة (النزعات القومية اليمينية) والمعادية لكل مهاجر، وكذلك مواجهة النزعات الأصولية الانغلاقية المتصاعدة.
- وكل ما تقدم يتطلب إحياء القيم الديمقراطية والجمهورية معاً.
- ٢٠- لقد كانت فرنسا - ومثل دول - تشكل بوتقة للانصهار القومي، فتصف شعبنا اليوم من المهاجرين.
- ٢١- المطلوب لأوروبا أن ترتفع فوق القومية والدولة القومية؛ لأن المشكلات صارت (كونية)؛ لذا لا بد أن يكون القرار

مشتركا.. كما أن مفهوم (الوطن) لم يعد مفهوماً قومياً،
إذ الأرض اليوم وطن الإنسان، وكارثة (شرنوبل) ومثله
جنون البقر وأمثالها كالفيضانات والأعاصير، تذكر أهل
الأرض بأن حدودهم مشتركة ومفتوحة ومتداخلة.

وبناء على كل ما تقدم: فإن السياسة الحضارية إما أن
تكون (كونية)، أو لن تكون ثمة سياسة أصلاً... اهـ.

استعراض جيد لكل نقاط القوة والضعف، ما يراد
استبقاؤه وما يراد ترحيله..

في ثقافتنا ومن تراثنا قاعدة تقول: (كل من حرك ساكناً
لزمه).. وحضارة اليوم تحرك كل يوم ساكناً وتهيجه، ولو قدرت
على نقل الجبال من مكانها لم تتأخر ساعة..

لقد باهت وما تزال تباهي بأن حضارة اليوم فلقت الذرة،
نعم فعلت، فانتشرت السرطانات في كل العالم، وحدث تسرب في
مفاعل شرنوبل - وهو واحد من أربعة مفاعلات - فحبس العالم
كله أنفاسه، وارتفعت سحابة وراحت تتنقل ما بين أوروبا وكندا،
وكل مكان أمطرت فيه، فالماء ملوث والنبات ملوث، ووصل التلوث
إلى حليب البقر الذي يرعى العشب الملوث..

ونتساءل: ترى لو انفجرت هذه المفاعلات أو غيرها، فما

مصير الحضارة؟

يفاخر الإنسان الغربي بأن حضارته أطلقت من الحريات ما لم يفعله سواها، ومنها (حرية الجنس)، فضرب الإيدز العالم وراح يطحنه، يتحدثون عن حرية السوق - الدين الجديد - فضرب الاقتصاد العالمي في الصميم، وصارت أغنى الدول تتسول وتستدين، وتنادي: لله يا محسنين، إن أدغار موران رائد صادق وهو يندر ويحذر، فهل من مستمع أم على القلوب أقفالها؟

خاتمي وأزمة كبرى

إذا راح أدغار موران يديق ناقوس الخطر بالنسبة للحضارة، ويطالب بوضع سياسة عامة، فالدكتور محمد خاتمي ينظر إلى الإنسان في دول العالم الثالث فيراه يتخبط في أزمة كبرى، إنه لا يملك مقدراته، السلطة تنازعه وتحرمه، والدول الكبرى تنازع السلطة المحلية، وتقرض عليها كل يوم جديداً، لا تقدر عليه.

يقول د. محمد خاتمي^(١): يعاني الإنسان المعاصر من (أزمات) تاريخية كبرى، لكن أعظمها قد واجهته متمثلة في (غياب الاعتراف بحقه في امتلاك مقدراته) فعلى مر الزمان كان الإنسان (خاضعاً) لهيمنة السلطة، التي تخضع بدورها لنزواتها ومطامحها، واليوم ونحن نستقبل (الألفية الثالثة) يلزمنا أن نستوعب هذه الأزمة، كي نتمكن من معالجتها وبشكل مناسب..

(١) حوار الحضارات، مرجع سابق، ص (٩٣).

مع ظهور الإسلام الذي امتلك (رؤية إنسانية) كانت تعمل على تنمية العقل، لاحت آمال تعد بنهاية عصر (التمييز والقهر)، فخاض الإنسان خلال -النصف الأول للقرن - من عمر دولة الإسلام، خاض تجربة امتلك الإنسان فيها حق تقرير مقدراته، وذلك في حياة الرسول الأكرم، حتى نهاية عصر الراشدين... ١٠هـ. وقد يعجب الإنسان من هذا الذي حصل قبل ألف وأربعمائة عام، ثم يعجب مرات بأن ثلاثة من الخلفاء الراشدين يجري اغتيالهم، الواحد بعد الآخر، وأن طاغية مثل (الحجاج) يموت حتف أنفه، كما يموت البعير، وهو من قال الخليفة عمر ابن عبد العزيز في حقه: لو تخابث أهل الأرض جميعاً وقدمنا الحجاج لغلبناهم جميعاً.

عندما تنهار الدولة

حين تكون الدولة مستبدة وظالمة وباطشة، ثم تنهار (بسرعة) بعد حكم طويل، تكون ردة فعل المجتمع (مخيفة)، حيث تنطلق (قوى) كأنها كانت في (دورة سبات)، لكنها تنطلق في سباق مع الزمن، بحيث يتعذر تصور الحدود التي ستقف عندها (جماهير هائجة) لا تعرف سوى السلب والنهب والتدمير..

د. عدنان مصطفى - من رجال علم الاجتماع في جامعة بغداد - يقول^(١): تكشف التحليلات لقوة وعلاقات المكانة عن

(١) مجلة نداء الحرية، العدد (٩) ص (٣٢) السنة الثالثة (بغداد).

جوانب كثيرة معقدة كحالات تداخل بين (المرجعيات الثقافية) خصوصاً في السنوات التي أعقبت (الاحتلال) عام ٢٠٠٣م، وانهيار سلطة الدولة وتفكك منظومات (الضبط الرسمية) وغيرها، ولعل أهم ملامح ذلك:

١- كشفت مجريات السنوات الماضية عن كثير من مكامن (الضعف والخلل والقصور الذاتي) لدى مؤسسات المجتمع التقليدي والحداثي، الخدمي منها وغيره، كشفت الظروف عن (هلامية وضعف في بناء وأداء ورؤى وأهداف) تلك التشكيلات، مما انعكس سلباً على برامجها وسياساتها ومبادراتها وأنماط تفاعلها مع الجمهور، وعلى درجة استجابتها الفعلية لما تواجه من تحديات.

٢- لقد أظهرت الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي شهدتها العراق بعد ٢٠٠٣م عن (ضغط التحولات السريعة)، التي أعقبت الاحتلال وانهيار سلطة الدولة، وهكذا ظهرت مشكلات عديدة يعانيها العراق، على مختلف المستويات، وقد لعبت سلطة الاحتلال (دورًا مربكًا متسلطًا) في تحريك هذا الطرف أو ذاك، وكل هذا يتطلب (مراجعة كاملة شاملة) من كل الأطراف، بهدف تغيير تلك الأوضاع وبوسائل عقلانية ديمقراطية.

٢- إن جسامه الآثار المترتبة على (سياسة التدمير) التي أعقبت الاحتلال، قد حالت دون قدرة أي من التشكيلات على مواجهة هذه الآثار منفردة، والأمر يستدعي تطوير آليات للتوفيق بين الجهود الرسمية والشعبية، لتحقيق التكامل في إطار تعزيز قدرات المجتمع لحماية نسيج المجتمع وتعزيز قدراته.

٤- إذا سلمنا بالحقيقة القائلة: إن الإنسان هو نتاج بيئته، وهو حصيلة واقعه الاجتماعي، وهو الذي يصنع ذلك الواقع أصلاً، في ضوء ذلك تتحدد علاقته بالماضي والحاضر والمستقبل، لكن المشكلة الحقيقية في الواقع هو أننا (نسقط الماضي على الحاضر، ثم نتطلق للمستقبل)، وهذا يؤدي إلى إشكالات وجدل يسهم في عرقلة نهوض المجتمع.

٥- لقد كان من أهم أسباب تعثر تجربة التحولات الحديثة العهد في المجتمع العراقي خلال الأعوام الماضية، هو تحول السلطة إلى (طرف معزز للتناقضات السياسية) في مختلف الأوساط المجتمعية في محاولة لاحتواء (التحول والتغير)، الذي بدأ يخرج عن مجال الارتهان لتلك التناقضات، التي كانت تمارس ولعقود من الزمن في العراق؛ لذا فإن على السلطة أن تتجه نحو تعزيز فاعلية (المجتمع المدني)؛ لأنها أصلاً مسؤولة عن ذلك، وعن منحها شرعية الحكم... ا.هـ.

أستذكر أن التيار الكهربائي انقطع ليلة عن مدينة نيويورك، فانطلق الناس يذهبون ويحطمون واجهات المحلات، ويخربون، بحيث أصيب المجتمع الأمريكي بصدمة كبيرة.

وقد ارتكبت قوات الاحتلال في العراق جرائم عدة: أولها وأكبرها وأخطرها تفكيك الدولة وإلغاء الجيش والشرطة، واهتمت فقط بوزارة النفط، فلم تسمح لأحد أن يقترب منها، على حين أحرقت وزارات، ونهب المتحف، وأحرقت مكتبة الأوقاف، ونهبت معدات من المستشفيات والجامعات، وكل ذلك والجيش المحتل وهولاكو الثاني (بريمر) يسجل كل ذلك بمذكراته، كما يسجل أسماء من شجعوه على حل الجيش والشرطة.

من قواعدنا التراثية: أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. لكن مشكلة العراق أن السلطة انتقلت لمحتل لا يهمله ولا يحزنه ما يحصل في بلد مثل العراق، وقد فتح الحدود لكل مجرم وكل حاقد، ليدخل العراق ويفعل ما يشاء، حتى مخازن الأسلحة للجيش والشرطة فتحها وشجع على نهبها وبعد ذلك راح يسعى لجمعها ويدفع الأموال لذلك، وقد تكون الأموال من خزينة العراق..

من غرائب الحضارة

حضارة اليوم تموج بتناقشات صارخة، على رأسها (عشق الكلاب والقطة)، وكتابة (وصايا) بموجبها تحصل كلاب

وقطط على ملايين، واليوم تقدر جهات أوروبية أنه ينفق على الحيوانات الأليفة في الغرب أكثر من (خمس مليارات) من الدولارات على هذه الحيوانات، ترى لو خصص هذا المبلغ لفقراء العالم ألا يكفيهم؟

من هذه العجائب: أن الشرطة في مدريد توقف عائلة تسوق سيارة دون ربط الحزام، لكن الشرطة اكتشفت مخالفة أخرى، فقد وضعت العائلة أولادها في الصندوق الخلفي مع الطعام وبعض الأثاث، وفي الوقت ذاته أن (الست المصون) كانت تضع (كلبها) على (صدرها)، مما دفع الشرطة لكتابة مخالفة جديدة، مع الاستغراب لهذا السلوك^(١)... أ.هـ.

وهناك نزاعات بين الرجال والنساء، تصل إلى طلب الطلاق؛ لأن الرجل لا يحب كلب الزوجة، أو العكس.

بعض المهاجرين للغرب الذين يحشرون مجموعات، ويجري اعتقالهم والتضييق عليهم كتب خطاباً لإدارة (التجمع) يقول فيه: بصفتي إنسان مهان معذب أطلب منحي ولو بعض حقوق الكلاب في الطعام الجيد والفسحة اليومية والحمام الأسبوعي!

الصراع والمراوحة

ينقل بعض العرب الذين زاروا الصين أنهم سمعوا من القيادة الصينية القول: إنهم ظلوا يتصارعون مدة جاوزت

(١) صحيفة الشرق الأوسط في ١٥/٤/٢٠٠٩م.

نصف قرن حول الطريقة المثلى لتوزيع (الثروة)، خلال هذه المدة سقط ناس ومات البعض، ثم اكتشفنا أن (الثروة) التي نتصارع على توزيعها لا وجود لها، وأن صراعنا كان عبثاً..

كتب فائز هشام البرازي كتاباً جعل عنوانه: (لا للديمقراطية: نعم للديمقراطية) ويعني أن الديمقراطية مرفوضة عند بعضنا، مقبولة عند غيرهم، لكننا كحال القيادة الصينية بالنسبة للثروة وتوزيعها.

يقول فائز^(١): مائة عام وأكثر من (المثاقفة)، ونحن ندور حول (أنفسنا) نرفع شعارات، ندخل جدلاً ومناظرات، كلها غير مثمر، ولم تؤدِ إلا إلى (ضياع بوصلتنا)، فمن الاستبداد والحرية، إلى الرأسمالية والاشتراكية، إلى القطرية والقومية، إلى التخلف والتحديث، إلى الدكتاتورية والديمقراطية، إلى العلمانية والدين.

عناوين كبيرة (أسقطنا) أكثرها كشعارات، وسنسقط، إن بقينا نراوح في (مربع الجدل والمناظرة والمثاقفة)، ولم نبدأ بالعمل، بالسير على طريق الإنجاز، ويحق لنا أن نتساءل: ماذا نريد؟ وما الهدف؟

(١) لا للديمقراطية: نعم للديمقراطية، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م دمشق ص (٩٧).

أقول جازماً: إن الجميع يريد تحقيق الحرية والتقدم، يريد الرفاه والازدهار، يريد العدل كهدف يسعى الكل لتحقيقه.

الهدف واضح ومحدد ومشروع، لكن الاختلاف حول (الأسلوب والنهج) كي يتحقق الهدف، وهنا نصل إلى الموضوع المطروح بقوة، وعلى كل المستويات والتيارات، إنه (الديمقراطية)، التي تكاد تتحول إلى هدف بينما هي وسيلة.. الديمقراطية بإيجابياتها وسلبياتها أمر يحمل (ثنائيته)، إنها الأسلوب الأمثل والأصلح في إدارة المجتمعات واتخاذ القرارات....

الديمقراطية غير محصورة في إعادة بناء المؤسسات السياسية للنظام، وليست دساتير - على الورق - تمنح درجات من الحرية، ليست قوانين ونظم انتخابية، مع أن هذه الآليات ضرورية في تحقيق أي نظام ديمقراطي، إلا أن ممارسة الأساليب الديمقراطية على أرض الواقع، بشكل سلوك، ومن قبل السلطة والمواطنين يشكل الأساس الذي يتجاوز كافة القرارات والهيكل (الفوقية).... كذلك فإن تأصيل القيم يعد الرافد الأساسي في بناء الوطن وتممية المواطنة وتطويرها وباختصار:

١- ينبغي تأصيل ثقافة الحوار وتقبل الآخر، على المستوى الوطني بأفكاره وأسلوبه وثقافته ورؤاه..

٢- تأصيل القيم الأخلاقية والدينية التي بإمكانها أن تصلح أحوال الأفراد، وتسعى لمحاربة الفساد بكل أشكاله وأنواعه، من فساد الأخلاق التي تشمل عمليات السرقة والنهب والاختلاس والرشوة والسطو على المال العام والخاص دون وجه حق، وأن تتم المحاسبة الفعلية والجرمية، وخاصة (المال العام)؛ لأنها تدمر الوطن والمجتمع.

٣- الإصلاح: وهو عملية تنمية مستديمة، ترمي الموارد البشرية والطبيعية والصناعية، إن الإصلاح من الأعمال الشاقة المستديمة، على أن يتزامن مع الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، دون استبعاد أو تفضيل لنوع على آخر..

٤- وما تقدم يدفعنا لطرح السؤال الآتي: لماذا تخضع الشعوب (للطفغان والخداع) بصوره وأشكاله المختلفة، سواء أكانت لأفراد أو دول، وسواء أكانت من الشعوب المتحضرة أو الفقيرة المتخلفة..؟

يميل الكاتب لما طرحه (الكواكبي) من كون (الاستبداد) مرض، وهو من حيث المسؤولية (موزعة) بين الحاكم والمحكوم، أما إزالته فتتم (تدرجياً) وبتكاتف الواعين.. فالحل في نظر الكواكبي (عقلاني)، يبتدئ بإصلاح الفكر، ثم يوحد الرأي العام.. أما المفكر الروسي (آتين لابوسيه) من رجال القرن

(١٦) فيرى: أن الشعوب تترك (القيود تكبلها)، بل تكبل نفسها بنفسها، أما خلاصها فمرهون بالكف عن (خدمة سيدها)، سواء أكان طاغية أم دولة أم نظاماً..

وللاستبداد (طبيعة) متى خضع له جيل، استسلمت له أجيال، كأنه وضع طبيعي، عندها يصبح (عادة) لا غرابة فيها، فالشعب الذي يولد في ظل الاستبداد، لم يعرف غيره... (إنه الإلف)!

هذا (التفسير) يقدم رؤية لما يرى من أن الأجيال العربية الجديدة تنصرف عن (العمل السياسي)، وعدم تحمل المسؤولية في المشاركة في العمل العام، يضاف لذلك وجود حالة من (الإحباط) بين النخب المثقفة، ومن (الطبقة المتوسطة) التي حملت من قبل مهمة (التحديث) وخاضت (معارك الاستقلال والحرية) ... ١٠هـ.

الملاحظ: أن الطبقة الوسطى، التي تحمل الأحزاب وتدعمها بقوة، قد سحقت سحقا لا سابقة له، وفي أغلب البلاد العربية، وتحولت إلى طبقة فقيرة منهكة متعبة، لا حول لها ولا قوة..

أما المثقفون - وقد قدمت لهم الأمة الأموال والفرص لصعودهم - فقد تذكروا أنفسهم وعوائلهم، ونسوا أو تناسوا الأمة وما قدمت وما تعاني.. البعض - ممن كان في خدمة الاستبداد حتى الأمس - لا يزيد على الصراخ (قاطعوا قاطعوا، لا فائدة في المشاركة)!

هل هو التعب وشيوع الفساد، وتكالب المستبدين، أم انسداد الأفق، أم كل ذلك وزيادة؟

المتقف قد يكون (رائدًا) لأهله، وقد يكون (سمسارًا) لثقافة غير ثقافته، الأول يعيش بين أهله يحمل أفراحهم وأتراحهم، يتحسس معاناتهم، يؤله ويوجعه كل أذى يلحق بهم.. وهناك مثقف يعيش بجسمه بين أهله لكنه في غربة قاتلة، عقله وقلبه خارج بلده، حبه وعشقه خارج الحدود، مثل هذا ماذا يملك من عطاء ليقدمه؟ إنه يكتب قصائد هجاء - على طريقة الحطيئة - يسب ويشتم أمته ليل نهار، يشكك في عقيدة الأمة، ويشنع ويبرز كل خطأ في تاريخها، يذبح قصائد في هجو لغة الأمة، إنه كما قال أبو الطيب يومًا:

ووجودي بأرض نخلة ضر كوجود المسيح بين اليهود

لقد أصيبوا (بحول قاتل)، فلا يرون خيرًا ولا جمالًا ولا حقًا في أمتهم، ومن كان هذا حاله فماذا ينتفع منه ومن ثقافته؟

القش يرسم صورة المثقف

لدي أرشيف متواضع أجمع فيه نصوصًا موثقة، ومنذ أكثر من أربعين عامًا، بعد أن كثر وتوسع رحى أفهرسه، لبيتسنى العودة إليه والاعتراف منه، حاولت مع طلبتي أن أغريهم بجمع

أرشيف فلم أفجح، لقد وجدت - في الأرشيف - القش المثقف يتحدث عن (رفاق الطريق)، فيدين البعض، ويصمه بأشنع الأوصاف، فيقول^(١): يجد المثقف نفسه في قطيعة مع جذوره التراثية، ومع مضامين الأيديولوجية العملية، وذلك في سياق تكوينه كمثقف فرد، بهذا المعنى يصير نشوء المثقف ملازماً - لخروجه وانفصاله) عن مجتمع المغلوبين، كي يقدم نفسه - بعد بلورة معارفه الجديدة - كتقني في خدمة (السلطة) ..

إن هذه الحركة تضعه في قطيعة مع مجتمعه التقليدي، ومع كتل العصبيات من جهة، كما تضعه على طريق (تسلق معابر) السلطان الحديث، الذي هو بحاجة لأمثاله ... ا.هـ.

هذه الصورة (يكملها) في مكان آخر، إذ يقول^(٢): ... هكذا يتحرر المثقف الحديث من (عبء) تمثيل الحركة الجماهيرية وممانعتها للغالب، ويتجه ليصبح (ممثلاً للغالب)، وكذلك ليصبح (خواجاً) السلطة أو حاجب السلطان، إنه يستند في وصفه (الوسيط الجديد) بين السلطة والشعب، إنه يستند إلى سلطة شكلية يستمدّها من فوق، هي (سلطة العلم والثقافة العصرية)، التي تحاول أن تترث وتتافس سلطة (المثقف الشعبي) ... ا.هـ.

(١) مجلة السفير في ٢٩/٨/١٩٨٧ م.

(٢) في البدء كانت الممانعة، ص (٩٤).

هذا والقش من (الطينة)، فإن كان لا يعجب البعض حديثه الحاد الصريح، فهذا المستشرق الفرنسي (جاك بيرك) يقارب ما يراه القش ويزيد، فيقول^(١): راح الغرب يفرض على العالم الإسلامي أنظمة تحت شعار (العصرنة والتحديث)، لكنها فشلت جميعاً، لا فرق بين يسارية عبد الناصر أو يمينية شاه إيران، أما ما هو قائم - في العالم الإسلامي - فهو عبارة عن خيبة أمل الجماهير الشعبية في أنظمتها، ذات الصبغة اليسارية أو اليمينية أو اللبرالية؛ لذا عادت الجماهير إلى ما تملكه من نظام أكثر ملائمة لها، وأكثر تجذراً في نفوسها، وأعني به (الإسلام) الذي لم يزد توالي الأيام والعصور إلا تألقاً ورسوخاً... أ.هـ.

وأذكر هنا - دون ملل - بمقولة الفيلسوف نيتشه: من يحتقر غيره فهو عنصري، لكن من يحتقر أمته وتاريخه فإنه ينتحر... اللهم أبعد عنا النحر والانتحار، ومتقفين يحملون صفة الماء (لا لون ولا طعم ولا رائحة).

بين ثقافة التقدم والتخلف

أعتقد أن لكل أمة وشعب ثقافته الخاصة، وقد تكون له حضارة أو لا تكون، لكن أن تعيش أمة بلا ثقافة، فهذا غير وارد.

(١) لا للديمقراطية/ نعم للديمقراطية ص (١٢٦).

الباحث فائز البرازي يتحدث عن ثقافة الشعوب المتقدمة والمتخلفة ومقومات كل منها، فيقول^(١): إن ظاهرة التخلف بمقوماتها الكثيرة من: استبداد وفقر وفساد وإرهاب وتبعية هي اليوم (ظاهرة عالمية) تشمل آسيا وأفريقيا، كما تشمل جزءاً كبيراً من أمريكا الجنوبية، أي أنها تغطي (معظم أنحاء العالم) جغرافياً، هذه الشعوب لا رابطة بينها من حيث العرق أو الدين أو الثقافة أو الجغرافيا، لكن يربطها رابط واحد هو (الجهل)، الذي يعد (مرتعاً) للتخلف بكل أشكاله. وأسارع للقول ليس المقصود بالجهل الأمية فقط، ولا تردي مستوى التعليم أو ضعف الثقافة؛ لأن ذلك موجود بمعدلات عالية في (أمريكا وكندا وأوروبا)، فمعدلات (الأمية) في أمريكا وكندا تتماثل مع معدلاتها في كثير من الدول والأمم المتخلفة.

ويلاحظ أن الشعوب الأمريكية والأوروبية واليابانية -مثلاً- (ثقافتها ضعيفة) خارج ثقافتها المحلية البحتة، ومع ذلك فإن هذه الشعوب تمكنت من بناء مجتمعات حضارية إنسانية راقية يتعذر إنكارها... إذا فالجهل هنا يمكن تعريفه بأنه: (رفض المعرفة) كاصطلاح جلي، وهو يعني فتاعة بامتلاك الحقيقة، غير القابلة للنقاش، وهنا يأتي (رفض الآخر) بما يحمل من معرفة وثقافة وحضارة، فيؤدي ذلك لتدمير ملكات التفكير..

(١) لا للديمقراطية/ نعم للديمقراطية ص (١٢٦).

هذا الجهل برغم كل ما يبذل في مجالات التعليم بكل
مراحله، ومحو الأمية فهو باق ومسيطر على مستوى العلاقات
الإنسانية والاجتماعية والأسرية وبين الحكومات والشعوب... أ.هـ.

تفريق جيد بين ثقافتين، لشعوب متقدمة تجهل الجغرافيا
والتاريخ والأدب، وثقافة متخلفة وإن عرفت الكثير من الجغرافيا
والتاريخ... بل قد يوجد لدى شعب متقدم خرافات وأساطير
لكنها لا تؤثر على العلوم والصناعة وغيرها...

قبل بضع سنوات وصلت للعاصمة الماليزية وقضيت أياماً،
وذات يوم دعيت لتناول الغداء في بيت صديق، ولفت نظري
وجود مجسم لإنسان في الحديقة وأمامه فواكه كثيرة وبخور،
سألت الصديق: ما هذا؟

قال: هذه دار زميل بالجامعة يعد شخصية (فذة) في
الحاسوب وعلومه وبرامجه، وما رأيته مجسم لعبوده، يتقدم
إليه صباح كل يوم بخشوع تام، يصلي له ويلتمس منه البركة،
وقد خصص له ميزانية شهرية لشراء الفواكه الجيدة وأنواع
البخور الغالية، وهذا منتشر بين المثقفين وأساتذة الجامعة.

ومن أمريكا الشمالية، رجل كبير في الخارجية الأمريكية
يحاضر في السياسة والإستراتيجية الأمريكية في إحدى
الجامعات، يذكر الحرب العالمية الثالثة أكثر من مرة فيقف

طالب ويقول بانفعال شديد: الحرب العالمية الثالثة وتكرر ذلك،
فهل توجد حرب عالمية أولى وثانية؟

إن معلومات الشعب الأمريكي عن الجغرافيا والتاريخ مخيفة،
لكن هذا الجهل لا يؤثر في الصناعة ولا الزراعة ولا في العلوم...

الجديد في العالم أن وسائل الإعلام لدى المتقدمين بدأت
توجد قنوات، وتمسح أخرى، وهي غير محايدة ولا صادقة في
كثير من الأحيان..

والسؤال الكبير: هل يمكن أن يجتمع الصيف والشتاء
في بيت واحد؟ وهل يمكن أن تجتمع ثقافة متقدمة مع بعض
أساطير وخرافات؟ وهل يمكن لدول متخلفة أن تعلم شعبها
الكثير من الجغرافيا والتاريخ، وأن يكون ذلك على حساب
ثقافتها وتاريخها؟

أكاد أجزم أن بعض الشباب العربي يعرف عن (مردونا)
وفرق كرة القدم أكثر مما يعرف عن ثقافة العرب في الأندلس،
أو الدولة العباسية، أو البحري وأبي الطيب.

في أعماق الثقافة

أتيحت لي فرصة لزيارة القارة الأفريقية، تبدأ الرحلة من
السودان وكينيا حتى آخر بقعة في جنوب أفريقيا (رأس الرجاء

الصالح) عند التقاء المحيط الهندي مع المحيط الأطلسي... كما زرت غرب أفريقيا، من دول الكونغو إلى روديسا (زنبابوي)... خالطت شعوباً وتحديث إلي أناس، وكانت أكبر قضية هزت أعماق نفسي حين اكتشفت أن (الثقافة) تصنع ولاءً طوعياً وقناعة، يصعب أن تتبدل أو تذبل أو تموت..

لقد زرت جزراً في المحيط الهندي مثل ريونين وموريشيوس وما حولها من جزر صغيرة، لا تظهر على خارطات العالم لصغرها، ومع ذلك كان أجدادنا يزورونها وهم يدورون حول أفريقيا، قبل شق قناة السويس..

ملخص التجربة: شاب مسلم تعلم في البلاد العربية فاستعرب، بل صار أكثر (عروبة) من العرب، ثقافته عربية، مكتبته عربية، أسماء أولاده عربية، اهتماماته السياسية والاجتماعية عربية، يصوم رمضان مع العرب، ويفطر إذا أفطروا، يعد زيارته لبلد عربي من أولى رغائبه وأهمها.

يقابل هذه المجموعة (المستعربة) أولئك الذين ولدوا في الهند أو باكستان، وتعلموا وتثقفوا فيها، فهم مسلمون عقيدة، هنود أو باكستانيون ثقافة، الأسماء محلية والإمام والمؤذن ومعلم المدرسة والعروس من هناك، الكتب والمكتبة كذلك، يصومون مع الهند ويفطرون معها..

هكذا تصنع الثقافة (الولاء)، وأتساءل دون ملل: هل يستوعب قومي ذلك؟

في زيارة لماليزيا وجدت شعاراً يقول: انظر إلى الشرق، في البلاد العربية الشعار: انظر للغرب، ولا تصرف نظرك عنه، حتى أصبنا (بالصعر) ذلك المرض يضرب الإبل فتميل أعناقها، نعشق الغرب وهو يعشق عدونا، فما الحل؟ ما حالك إن عشقت امرأة تحتقرك وتعشق غيرك؟

الثقافة كما أعشقها

حديث الإنسان عن نفسه سمج ثقيل، لا يقبل عليه إنسان سوي، إنه من اختصاص الحاكم الفاشل ومجنون العظمة، فاللهم أبعدنا عنهم جميعاً. بعد هذه المقدمة (الغريبة) أريد أن أقول: أنا امتهنت التدريس، ابتدأت قبل أكثر من نصف قرن في التعليم المتوسط والثانوي وانتهيت بالجامعات، أدرس الثقافة الإسلامية والفقهاء وتفسير التاريخ، وأشرف على عدة رسائل في الثقافة، واشتركت في مناقشة العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه، ثلاثة أرباعها في دائرة (الثقافة)، وأمارس الكتابة والتأليف في الثقافة والحضارة... هذه المقدمة لا تخلو من سماجة نعم؛ لأنني أريد تبرير اشتغالي بالثقافة، فقناعتي تزداد بأن الثقافة للإنسان هي التي (تبرمج عقله)، وتصنع له (الولاء وتحسنه)، وقد تجعل

منه إرهابياً يغتال والده، أو تجعل منه متخلفاً، يستحسن وضعه في ركن في متحف (قديم)، كما قد تجعل منه ناشطاً مكافحاً وقد تجعل منه رائداً - والرائد لا يكذب أهله - كما ورد على لسان رسولنا ﷺ... وقد تجعل منه ثقافته (خواجاً) وسمساراً لغير ثقافته، بل وكيلاً لمن يعاديه ويعادي أمته، لكل ما تقدم فأنا عاشق للثقافة، موقن بجدواها، فهل الأم على ذلك؟

طفل يتفلسف

اصطحب خال ابن أخته - في السنوات الأولى الابتدائية - وفي الطريق حان وقت الصلاة، فتوجه الخال وابن الأخت للمسجد، وبعد انتهاء الفريضة أعلن عن وجود جنازة لطفل، وبعد الصلاة على الجنازة، قال الطفل لخاله: هذه الصلاة ليس فيها ركوع ولا سجود، رد الخال: هكذا الصلاة على الميت، لا ركوع ولا سجود فيها، قال الصبي: لماذا مات هذا الطفل؟ أجاب الخال: لا أعرف، علق الصبي: لقد كان يتعب أمه فدعت عليه فمات... إنها الثقافة، تصنع القناعة والولاء...

إنتاج المعرفة وغيرها

يشهد العالم ثورة في المعلومات لا مثيل لها، والفضل للإنسان صانع الحاسوب (الكمبيوتر)، هذه الثورة تزيد في

قدرات الإنسان (الفكرية)، بحيث يصير الإنسان (منتجاً للمعرفة)، وقد كان حتى أمس ينتج (البضاعة)، وهذا يجعل الإنسان الأساس في الاقتصاد، من هنا مسؤولية أن يقوم الفرد بتزويد نفسه بالمعرفة الجديدة، والكثير من الشركات راحت تساهم بذلك، فتعقد دورات وتبتعث أشخاصاً للحصول على معلومات متقدمة، ونشأت طبقة جديدة من العمال (عمال معرفيين)، لتحقيق النجاح في بيئات تتطلب نوعاً من الإبداع، مع طرح أفكار وابتكارات قابلة للتسويق والتشويق، هذه المعرفة تدفع باتجاه (تنمية الموارد الاقتصادية)، لكن هذه التنمية تتطلب مستويات جيدة؛ لذا تجب محاربة الأمية (الأبجدية)، وكذلك الأمية (المعرفية)، وعلى مؤسسات التعليم أن تنهض بذلك، وكذلك مؤسسات البحوث والبحث العلمي... ولعل اليابان تشكل المثل الأرقى المتقدم، واليابان كما هو معروف: كثافة سكانية عالية، سكان طوكيو بقدر سكان العراق، الموارد شحيحة، والأرض جبلية، لكن بفضل الإنسان وقدراته وحيه للعمل وقدراته الإبداعية، أما قدراته الثقافية مع كونه يستخدم أصعب لغة في العالم، ومع ذلك تنشط حركة الترجمة، فلا يصدر كتاب ولا بحث جيد إلا ترجم خلال أسابيع وطرح للتداول.

اليابان التي خرجت مهزومة من الحرب العالمية الثانية تتفوق اليوم على من ألحق بها الهزيمة، وقد كفرت بالحرب

كما كفرت بالجيوش الجرارة، وبالاستعمار وما يجره على البلد
الذي يعشقه..

ومن اليابان إلى أمريكا والسباق للوصول للقمر..

صراع أمريكا للوصول للقمر

فوجئت أمريكا أكبر مفاجأة حين أرسل الروس صاروخاً
للفضاء الخارجي قبل أكثر من نصف قرن، لقد كان سبقاً هز
أمريكا كلها، فراحت تعيد النظر في مناهج الدراسة من رياض
الأطفال إلى الدراسات العليا، ولم تكتف بذلك حتى فتحت
حدودها لكل صاحب قابلية علمية في العالم، ولم يهدأ لها بال
حتى نجحت في الوصول إلى القمر..

دول العالم تبحث وتتقب حتى بين الصخور، وفي أعماق
البحار، عن ثروة، وفي العالم الثالث حكام فاشلون همهم الأول
كشف المؤامرات وكفى.

ذات يوم كان الأستاذ إبراهيم المصري - أمين عام
الجماعة الإسلامية بלבنا، في تركيا يحاول إجراء حوار مع
وزير العدل التركي، وإذا بشخص يدخل ومعه ملف عاجل يسلمه
للووزير، ملخص القضية مجموعة تتأمر على (أمن الدولة) تبين
أن (٦) أفراد جلسوا في بستان يذكرون الله تعالى، وهذا تأمر
كبير على الدولة..!

في بلد عربي عدد نفوسه يتجاوز (٨٥) مليوناً من البشر، لهم (٢٠٠) ألف عسكري مدججين بالسلاح، يتمخرون ليلاً ونهاراً في شوارع العاصمة، تكتشف الحكومة كل ثلاثة أشهر مؤامرة: خمسة شباب أو ستة معهم سلاسل وسلاح أبيض - سكاكين مطبخ - يريدون قلب نظام الحكم، وتمضي الشهور حتى يحال المساكين إلى محكمة فتطلقهم لعدم توافر الأدلة! الممثل دريد لحام يسجل هذا الاكتشاف العظيم الدوري، ويقول: العالم يبحث عن النفط والمعادن والفحم، ودولنا مشغولة بالبحث عن متآمرين يعملون لقلب نظام الحكم لا غير! إنه عشق غريب.... وللناس فيما يعشقون مذاهب.

من متطلبات الحياة: الحركة والنظام

الكاتب عبد العزيز قباني له كتاب جيد عنوانه: (العصبية بنية المجتمع العربي)، ومن جيد ما ذكره^(١): إن الحياة تقوم على الحركة، ولا بد للحركة من نظام، وإلا سادت الفوضى، وتعطلت الحياة. النظام يضبط الحركة، ويقرر ويقنن مسارها، والنظام - في المجتمع - يضبط حركة الذات ثم يقنن (حريتها)، فلا حرية في مجتمع من غير نظام، كما لا حرية خارج محيط المجتمع...

(١) العصبية.... ص (٢٥٢) طبعة أولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، بيروت.

وواجب الدولة تنظيم حركة المجتمع، ولكن لا ينبغي لها أن تصدر الحرية في المجتمع، فإن فعلت فهي تطفئ شعلة الحياة فيه؛ لأنها تحدث (خللاً) في حركة الإرادة المعبرة عن الحياة.

إن تكامل (النظام والحركة) يمثل (المشيئة العامة)، وفي المجتمع فإن تكامل الإرادة والعقل يشكل تعبيراً عن النواز الأولية، فإن جرى تكامل الإرادة والعقل والأخلاق، هنا تظهر (نواز الإيثار).. كل مجتمع يحتاج إلى (معرفة) كي تدعم تنظيمه وللمحافظة على الحقوق، والهدف الأكبر (حماية الإنسان والمحافظة على بقائه)^(١).

والنظام قد يكون عاماً لكل أفراد المجتمع أو خاصاً بفئة منه. و(العصبية) نزاعة إلى ما هو خاص، أكثر من العام، كذلك فالحفاظ على النظام الخاص يقتضي نوعاً من (الانغلاق) والانكفاء على الذات، من دون الانفتاح على الغير والاحتكاك به، والتفاعل معه... وقد أغلقت اليابان حدودها أكثر من قرنين ونصف إغلاقاً تاماً، وكذلك فعلت بعض الدول - مثل اليمن الملكية - وكذلك الصين..

هذا الإغلاق والانغلاق لم يعد ممكناً ولا وارداً مع تطور المواصلات والاتصالات...

(١) هذا ما طرحه ابن خلدون في مقدمته.

ويعيب الكاتب على العالم (واقعه اللإنساني)، ذلك الواقع (المتوحش) الذي ينتهك جوهر الإنسان.

من هنا جاءت ضرورة (الانفتاح) بشرط أن يقوم (نظام قيم جديد إنساني) يتمثل بسلوك صريح - غير مناقق - بحيث تكون (الكرامة والحرية والحق) حلقاته الرئيسية، وإلا بقي العالم كله (المتقدم والمتخلف) منه (يتخبط بأزمة) وبلا إنسانية مع نفاق ظاهر.. لذا ثمة أزمة تضرب العالم:

١- أزمة العالم المتقدم (أزمة قيم) نابعة من عدم الالتزام (بقيم ثقافته وحضارته) خصوصًا في سلوكه (مع الخارج).. وهو في سلوكه هذا يبدو (كعصبية الطائفة) يعبر عن الجانب السلبي المستلب فيه..

٢- أزمة العالم المتخلف (أزمة قيم) أيضًا، لكنها نابعة من احتكاكه واطلاعه على حياة العالم المتقدم، ويجد فيها (جاذبية) تتجلى في حرية السلوك، وجودة الإنتاج والاستهلاك، وهو يتوق إليها ويريدها، ويقرب عن طريق (المعرفة والثقافة النظرية) لكنه يعجز عن (بلوغها) لافتراضها (شروطًا) غير متوافرة فيه (راهنًا)، والعالم الأول يجهد كي يحول دون هذا (التوافر)..

جماعة (العالم المتقدم) المتمترسة في فتويتها وأنانية مصالحها، والحاملة إياها على الاستغلال تحول دون اعتماد

قيم (العقلانية الإنسانية) ، وهي تنزع إلى التمسك بنظام يقوم على (التسلط والاستغلال والظلم وحرمان الشعوب الضعيفة من خبراتها وثرواتها) ، كل ذلك عبر استغلال (عصبياتها) ، كي تبقى ترسف في قيود (قيمتها المتنافية وقيم الإنسانية) مثل: الكرامة والمساواة والديمقراطية والعدل والتنمية...

إن الإنسان لم يبرأ بعد من (العصبية) ، بل مازال مشدوداً إليها، إما بقيمه (المتملة بسلوكه) الظاهر والباطن - كحال الإنسان المتخلف - وإما بسياسته، التي تعبر عن خلفيته (المتبعة بعصبية منزوية كامنة) ، وهذا حال الإنسان المتقدم، المتطور.

الإنسان الآخر - المتخلف - يشمل بعصبيته نفسه والآخر. أما الإنسان المتقدم فديمقراطيته لنفسه، وعصبيته ضد الآخر - إنه النفاق -.

إن الواقع الإنساني هذا، وهو يجسد الواقع الدولي (غير العقلاني) ولا الإنساني يجعل الدول المتخلفة في نزاع وصراع مستمر مع الدول المتطورة، الدول المتطلعة للتححرر من التسلط والاستغلال والتبعية والتجزئة - والعالم العربي في صميم هذا الصراع والنزاع -.

وهكذا نفسر تطلع العالم العربي للكرامة والمساواة والديمقراطية والوحدة والتنمية والعدل والأمن الغذائي وسواه،

يريد كل ذلك من أجل أن يخرج من حالة التجزئة والضعف والامتهان، والشعور بالهزيمة التاريخية، ويتطلع للوحدة والقوة والانتصار والكرامة والتقدم و(الندية)، وعلى الأخص (الندية الحضارية)... وهذه الذات العربية مدفوعة بما تقدم يجعلها تشد كل من تتوسم فيه القدرة البطولية على قيادتها لهذا النصر..

إن من يرتع في التقدم والحرية ليس كمن يرتع في (نقمة التخلف ولعنته) وما فيه من قلة وضعف، وانتهاك (لجوهر الإنسان)، أما المقارنة مع العالم الأول فتزيد من المعاناة والوجع... إن الذي يتطلع إليه الإنسان العربي هو (الانتصار الوحدوي الحضاري) فهو ضالة الذات العربية، والهاجس الذي يقض مضجعها..

عندما تصير (الأزمة في مجتمع أزمة وجود) فإنها تصير (شاملة متكاملة)، أما النهضة فلا تكون (نهضة أفراد) بل نهضة مجتمع وأمة...

وهذا الانتصار الكبير يتطلب (مجاهدة طويلة ومريرة)..

أما دعاة (المقاطعة) ونجوم الفضائيات فهؤلاء تجار ثرثرة، وليسوا قواد نهضة، ورجال فنادق - خمس نجوم - لا رجال فنادق.